
نصوص
كسر الخواطر
مكتبة
الحبر الإلكتروني
@bookkn
d110d
رحاب القباتلي

كسر الخواطر

مكتبة الحبر الإلكتروني
مكتبة العرب الحصرية

أبو يمان

دحان علي القباتلي

الطبعة الأولى

2021م

المؤلف: دحّان علي القباتلي

اسم الكتاب: كسر الخواطر

نوع الكتاب: خواطر

الناشر: نقش للنشر

https://www.facebook.com/naqsh.pub

إيميل: naqsh.pub1@gmail.com

تصميم الغلاف: نقش للنشر

مراجعة وتنقيح: د. حمزة عبد الله الضياني

الطبعة: الأولى 2021م

رقم الإيداع بدار الكتب الوطنية بصنعاء: 89 للعام 2021م

للتواصل مع المؤلف:

إيميل: Dahanalim@gmail.com

إهـــداء

إلى تفاحة القلب، وريحانة العين؛

ابنتي "أمان"،

زهرة الإنسانية، ومصدر الحبّ،

وبهجة الدنيا، وسلوة الخاطر..

كَسرُ خاطر الأم

حين يتقدم عُمُر الأم ويكون في ذيل الكهولة وبادئة الشيخوخة؛ تحتاج إلى مزيدٍ من العطف والحنان، وإلى رعاية متكاملة من مسكن، ومأكل، ومشرب، ودواء.

(ي.ن.د) امرأة طاعنة في السن، أكل الزمان جمالها، ومحا الدهر أنوثتها، وهي بين خدمة زوجها، وتربية أبنائها..

رأيتُها يومًا حزينةً مقرُوحة الكبد؛ لما نالها من الحِرمان المُرّ والصدّ القبيح، والجفاء الفاحش، والمُعاملة السيئة، فتوجعتُ لحالِها، وحزنتُ لحزنها، وتذكرت قول تلك المرأة التي اشتكت لرسول الله ﷺ قائلةً له: "يا رسول الله، أَكَل شبابي، ونثرتُ له بطني، حتى إذا كَبُرتْ سني وانقطع ولدي؛ ظَاهَرَ منِّي.. اللهم إني أشكو إليك.."

آهٍ، ما أقبح الجحود والنُّكران! حين ترى الزوجة الطاعنة في السن زوجها في لحظةٍ من اللحظات ينسف كلّ ما قدمته من خيرٍ وعطاء، وحين ترى ابنها يتنكَّر لها، وينسى فضلها!

أيها الابن، كيف تفرّط بأعظم جوهرة، وأغلى دُرة، وأعظم قطعة ألماس؟!

بل وإنّ أغلى ما تدَّخر وأثمن ما تملك هي أمك.

أيها الابن، لا تشترِ سخط أمك بكلّ صفراء وبيضاء الدنيا، وقل لها: "يا أماه، أنا سامعٌ مطيع، وخادمٌ شكور.."

أيها الابن، أما تخشى أن تُعجَّل لك العقوبة، وتفاجئك المصائب، وتحل عليك الكوارث؟!

أيها الابن، اذهب إلى أمك واعترف لها بذنبك وتقصيرك، وقُل لها: "مثلي يهفو ويجمح، ومثلكِ يعفو ويصفح".

يا أماه، لستُ جانحًا إلى مخالفتك، ولا جاحدًا لأياديك القديمة والحديثة، ولا مُنكرًا لنعمتك الكافية الشافية.

يا أماه، أنتِ قلبي الحاني، وروحي الطيبة، وبلسمي الذي أُداوي به الآلام.

يا أماه، نُوركِ يضيء لي الطرقات المعتمة، ويفتح لي المسالك المُغلقة.

يا أماه، رضاكِ يفتح باب اليُمن والبركة، ويزيد في الفهم والأدب.

****

كسر خاطر الأب

قد تخسر مالَك، وتفقِد وظيفتك، وتتعرض لضرباتِ الأيام وكدماتِ الزمان، وأنت صابرٌ محتسب، لا تتزعزع قيْد أنملة.. وقد تُسأَلُ عن سِرِّ صبرك، وتحمُّلِك فتجيب بكلّ شموخٍ وأنفة: "أبي".

إنه الأب..

إنه السندُ، والوطن..

إنه الشجاعةُ، والحصانةُ، والشكيمة..

إنه المأوى، والمَسكنُ..

إنه القوةُ، والمتانةُ، والمناعة..

إنه الأصيلُ، والرصينُ، والشريفُ، والشهمُ، والكريمُ، والنبيلُ والنجيب..

فهل يستحق مَن كانت هذه صفتُه، وقيمتُه، وأهميتُه، أن يُكافأ بمعاملةٍ قاسيةٍ من بعض الأبناء العاقِّين؟!

أيها العاق:

شُلَّت يداك؛ فلا استطعت لرفعها جُهْدًا، ولا فكَّ الإله عِقالها.. فبعد أن أينَعت، وأصبحت شابًا مفتول العضلات؛ تحولتَ إلى وحشٍ مرعبٍ، تؤذي أباك، وتكسر خاطره، فَمَن لك بصديقٍ لا يَقلِيك؟ ورفيقٍ لا يملّك؟ وصاحبٍ لا يُعاملك بالمكر؟ ولا يخدعك بالنفاق؟ سوى أبيك؟!

(ر.ت.ك) رجُلٌ كهل، كان صاحبًا لي كنت أتحدث معه، وقد أتت عليه ستٌّ وسبعون سنة، وهو أصحُّ الناس ذهنًا، وأقواهم بدنًا، فغبتُ عنه ثم أتيتُه؛ فوجدتُه حزينًا، نحيلَ الجسم، مكسوفَ البال، فسألتُه عن سبب تغيُّره؟

فقال: "ابني.."

فتغيَّر وجهي وتكدّر؛ فانصرفتُ قريح القلب وكأن جبال الدنيا جاثمةٌ على صدري.. فقلتُ:

"لماذا يُعامل الأب بهذه القسوة بعد أن رقَّ عظمه، وانحنى ظهره، وابيضّ شعر رأسه؟! أليس الأوْلى أن يُحْمل على الرؤوس، ويُحفظ في المُقَل؟! أليس الأوْلى أن تُقدَّم له الرعاية الكافية، وأن يُحترَم جَنابُه؟!"

أيها العاقّ، والله لن تهنأ بعيشٍ كريم، ولو حُزْت الدنيا بحذافيرها، فالهمّ والغمّ لن ينفكّا عنكَ حتى تعود إلى رُشدك.. والسعيد من اتّعظ بغيره..

****

كسر خاطر الزوجة

ما لي أراكِ حزينةً مكتئبةً وعلى عينيكِ آثار الدمع؟ وما الذي جلب لجسمكِ هذا النحول؟ ولوجهكِ هذا الذبول؟!

ردَّت عليَّ: "أُتركني وشأني أيها العزيز؛ فقد كُتب عليَّ الشقاء منذُ الأزل!"

-كيف أتركَكِ وقد قطَّع منظركِ قلبي، ومزَّق فؤادي؟!

فأجابت على مضض: "زوجي يُعيُّرني بدمامة خِلقتي، وتشوُّه صُورتي، وتَرهُّل جسمي، وشحوب وجهي!"

فتذكرت كلامًا قرأته: "جعل الله المرأةَ مِرآة الجمال، ومرقاة الكمال، وزانها بالحِليَتين؛ الحُسن والإحسان، وجعلها مصدر الحُب، وزهرة الإنسانية، وريحانة النفوس في كلِّ زمان".

فقلتُ:

"لماذا تُعيَّر ولماذا تُهان؟!

أليست المرأة هي الوردة، والنرجس، والسوسن، والأقحوان؟!

أليست المرأة هي ألحان العنادل، وهدير الحمام، وغناء القُمري، وحفيف الأشجار؟!

أليست المرأة كحامل المسكِ، لا يخلو من العَبَق؟!

أليست المرأة زينةً بين الأنام، ومُزنة عند الأُوام؟!

أليست المرأة هي نورُ القمر، وغصنُ البان؟!

أليست المرأة هي ربَّة الجمال، وذات البهاء والكمال؟!

أليست المرأة هي السلوى لكل عاشق ولْهان؟!

فلماذا تجعلها تذبل؟ ويأتي غيرك يسقيها!

وَيحَك! أتقتل عاشقةً وقد اشتعل قلبها بالحب والغرام؟!

فيا قاسي الفؤاد، رفقًا بالقوارير! فو الله لو وصفتُ لك الآلام التي تحرق فؤادها، واليأس المستحوِذ عليها؛ لما استلذَذْتَ بطعامٍ ولا شراب.. فكأنَّك بصنيعك هذا تدفعها إلى وهدة الشقاء، ومنها إلى وهدة الفناء..

أليس الأَوْلى أن تغدق عليها الحب والعطف والحنان؟! وأن تُصرِّح لها بحبك، قائلًا لها: "يا حبيبة فؤادي، ثقي بمحبتي لكِ وخالص ودادي؟!"

وتختم حديثك معها بقول الأمير العاشق:

ضعي كفي بكفكِ يا حياتي .. لنسريَ تحتَ رايات الغرامِ

فما أحلى اللقاءَ على انفرادٍ .. بلا عذلٍ عليه ولا ملامِ

ونور الحُسنِ من لحظَيْك يبدو .. ونور الحب يبدو من كلامي

****

كسر خاطر الأخ

دخل غرفته وظلَّ يتأمل في صورته المُعلّقة عرض الحائط، وبجانبه أخوه ووالداه.. انتزعها من الحائط، وظل يحتضنها ودمعه يسيل شوقًا لوالديه اللذين رحلا سريعًا وتركا له أخًا يصغره بسبعة أعوام، ويبكي حسرةً على تعليمه الذي تركه؛ حتى يوفر لأخيه مطالبه، وقهرًا من أخيه الذي كبر وترعرع على يديه، وفي الأخيرِ أنكره وجحده! تناسى شبابه وقلبه وحياته، من أجل أخيه، عمل ليلًا ونهارًا، من أجل أخيه..

كبر أخوه عامًا بعد عام، حتى التحق بأكبر الجامعات، وحصل على أعلى الشهادات، وكان يطير فرحًا بنجاح أخيه الأصغر، وينسى تعبه، وألمه، وحرمانه؛ بكلّ نجاحٍ يحققه أخوه..

حتى جاء حفل التخرج من الجامعة، وفي ذلك اليوم تأنق الأخ الصغير، وتجهز استعدادًا لحضور حفل التخرج، ولحقه أخوه الأكبر ليطعمه وجبة الإفطار بيديه وكلّه فرح وغبطة، لكنه رفض، واستعجل بالخروجِ ليلحق الجامعة ويستعد للحفل والتدريبات على الحفل وفقراته..

خرج الأصغر مسرعًا إلى جامعته، فقام بطلنا بتجهيز نفسه، ولبس أجمل ما عنده ليظهر بمظهرٍ يليق بأخيه الكابتن الطيار.. وصل البطل متأخرًا قليلًا وقد بدأ الاحتفال، وظل واقفًا في نهاية القاعة، ورأى أخاه ولوح له بيده؛ ظنًا منه أنه سيفرح برؤيته.. وكانت الصدمة القوية له حين لوّح له بالانصراف، وأعرض بوجهه عنه..

ولمح أحد الخريجين - وهو قريبهم- يسأله: "ها هو أخاك قد حضر حفلك"، فرد الأصغر قائلًا له: "أخبره بأن يخرج من القاعة، فلا أريد فضائح.. انظر إلى شكله وملبسه"..

فخرج الأخ الأكبر مكسورًا، ودمعه على خده، حتى استوقفه عميد الكلية: "لماذا تخرج، وحفل أخيك اليوم؟!"

فرد بانكسار: "لا، هو ليس بحاجتي الآن، فقد كبر بما فيه الكفاية.."

فَهِم العميد ما حصل، وجرّه من يده إلى القاعة، وأصعده على المنصة وكرّمه وهنّأه بنجاح أخيه، وطلب من الأخ الأصغر أن يصعد للمنصة، ويقَّبل رأس أخيه، فقبَّله وهو مطأطئٌ رأسه، فصفعه العميد على وجهه قائلًا: "ما هكذا يجازى الإحسان.. النجاح له، وليس لك! والكفاح كفاحه، وليس كفاحك! والهدية من حقه، وليست من حقك!"

وأعطاه درسًا في الأخلاق والاعتراف بالجميل وجبر الخواطر.. فبكى الأخوان، واحتضنا بعضهما بموقفٍ صفق لهما جميع من في القاعة..

****

الموظفة والعمل

أحبَّتهُ وأَحبَّها حدّ الهوس.. عشقته وتعلقت به.. هامَ حبًّا فيها.. جلّ وقته يتغزل بمحاسنها، ويتأمل جمال ملامحها، وتناسق جسمها المياس..

يعيشان قصة حبٍ، لم تنتهِ بزواجهما، بل تعمّقَا في هواهما، وتأصّلت جذور عشقهما في الصميم..

عاشا في منزلٍ فيه حجرتان، حُجرة للجلوس يتخاطفون أطراف الحديث فيها، ويتناولون طعامهم فتفوح منها رائحة الخبز المحمص صباحًا، ورائحة الأرز مساءً، وحجرة تجمعهما فتفوح منها رائحة الورد والفل والبخور..

وذات يوم، عاد من عمله يحكي لها وجود زميلةٍ له جديدة بالعمل، دخلت هذه الأخيرة حياتهما كصديقةٍ مقربةٍ للطرفين، قلَبت حياتهما رأسًا على عقب..

بدأ التغيير في تعامله مع زوجته، وكانت هذه الموظفة تتدخل في أتفه أمورهم، وتزورهم في منزلهم كناصحٍ ومصلحٍ اجتماعي، وهي سبب الخراب كلّه.. بدأت تلفُّ شباكها على بطلنا، فقد كان وسيمًا وجذابًا، ونجحت بذلك.. بدأت زوجته تشعر بتغيره عليها وتجاهله لها، إلى أن أصبحا متفرقين، حتى في نومهما، كلٌ في غرفةٍ منفصلةٍ عن الآخر..

كانت فتاتنا تشتكي لتلك الحرباء مشاكلها، وكانت تنصحها بالابتعاد والذهاب إلى أهلها؛ لكنها ترفض دائمًا..

إلى أن عاد يومًا من عمله، فأسرعت إليه لتُعانقه شوقًا منها له، فأوقفها قائلًا: "توقفي، فأنا لم أعد ملكًا لكِ منذ الآن!"

نزلت تلك الكلمات عليها كصاعقةٍ هزّت كيانها، ودمّرت ما تبقى من أحلامها! فردت مذهولة: "مِلك من إذن؟!"

قال وبكلّ برود: "مِلك زوجتي الجديدة"، وأسرع إلى الباب وأدخلها وهي نفسها تلك الحرباء الدخيلة، فلم تتمالك زوجته نفسها، فوقعت مغشيًا عليها.. أسرع إليها يرشُّ بعض الماء على وجهها، ففتحت عينيها واستجمعت قواها ونهضت، وابتسمت ابتسامة قهرٍ وسخريةٍ وقوةٍ وضعفٍ في آنٍ واحد، وقامت مسرعةً وهي تترنح، وتمسك بالحائط..

دخلت غرفتها، تلملم بقايا أحلامها المحطمة، وشتات قلبها المكسور، وملابسها التي ذبلت -منذ أن دخلت تلك الحرباء حياتهما- ورحلت، تاركةً خلفها بقايا بيتٍ مهجور، وزوج غدارٍ ومغدور، ورُفات حلمٍ مقهور، وأخذت معها خاطرًا مكسور، وقلبًا منحور، ودرسًا لا يُنسى..

****

زميلات اللا أدب واللا علم

تركت دراستها، واعتكفت في بيتها، وحتى حالتها النفسية تأثرت؛ فقد ابتليت بزميلاتٍ كسرن خاطرها، فتلك تقول لها: "يا شوهاء"، وأخرى تقول: "يا قبيحة"، وثالثة تقول: "يا قصيرة"!

وإنّي لأتعجَّب؛ كيف يحدث ذلك في بعض المدارس فأين الرقابة؟! وأين الإدارة؟!

ورسالتي إلى كلّ طالبة مغرورة:

"الجمال ليس معيارًا للحب أو البغض، وإنما الأخلاق هي الميزان"، فهَبِي أنكِ فتاة بيضاء مُشربة بحُمْرة ذات طرْف كحيل، وخدٍّ أسيل، ومبسمٍ كأنما نُظم من أقاح، وطرَّة كأنها ليل على صباح، ولكن لسانكِ يؤذي الآخرين!

فهل ينفعك جمالكِ؟ ويشفع لكِ حتى يُحبَّك الآخرون؟!

وقد تكون إحدى الفتيات سوداء، مظلمة السواد، شوهاء الخَلق، ذات عين مُحمَّرة، وشَفَةٍ غليظة، وشعْر قطَط، ولكن الكل يشهد لها بدماثة أخلاقها، وحسن تعاملها، وكرمها وطيبها، وهذا وربي هو الجمال الحقيقي، ومما ترقُص الأسماع له، ويرنِ على صفحات القلوب.. فهل رأيتم أعذب من هذا الجمال، وأعلَق بالخاطر، وأسرى بالسمع؟!

الزوج السكران

كانت ترى زواج والديها أكبر وأجمل مثال للزوجين الحميمين.. كَبُرت، وتربَّت، وترعرعت تحت ظلّهما، وهي تلمس كل يومٍ أروع الأمثلة للحب، والتفاهم، والوفاء، والثقة، والاحترام.

كانت ترى النشاط والاجتهاد فيهما، وتجدُ الحياة بكلّ معانيها تحت ظلهما..

حتى نما في مخيلتها المعنى الحقيقي للحب وللزواج، إلى أن جاءها خاطبٌ يرجو قبولها به زوجًا، فأحبَّت أن تعيش تجربة والديها، وأن تدخل معه القفص الذهبي كما كانت تتخيله وتتمناه..

تزوجت تلك الجميلة الحسناء بذلك الوسيم الثري، عاشت أيامًا جميلة كما كانت تتخيلها، ورسمت لمستقبلها حياةً رغيدة، كالتي عاصَرتها مع والديها وربّما أفضل مما عاشاه..

مرَّت الأيام والشهور، ولا زالت كل يوم ترسم حلمًا وطموحًا لغدٍ أفضل..

إلى أن عاد الزوج ذات ليلةٍ ثملًا يترنح!

استقبلته بخوفٍ وهلع؛ ظنًا أنه يعاني مرضًا ما.. اقتربت منه لتسنده؛ فدفعها بقوة الإعصار ضاربًا بها عرض الحائط، ونزفت من رأسها دمًا..

استجمعت قواها للنهوض؛ تحاول فهم ما يجري، فدفعها مرةً أخرى، واستمر بترنّحه داخلًا غرفته، وأقفل على نفسه الباب..

أسرعت نحو غرفته، تطرق الباب بشدةٍ وخوفٍ معًا، وهي تنادي باسمه: "ما بك؟ ما الذي حصل؟ هل أستدعي لك الطبيب؟!"

فخرج إليها، وصفعها على وجهها قائلًا: "لست مريضًا ولا مجنونًا، بل أنتِ المجنونة! دعيني وشأني"، وعاد لغرفته وأقفل بابها..

ظلت المسكينة كالمصدومة أمام غرفته، تسيل دمًا من رأسها، وتنزف دمعًا من عينيها الذابلتين.. تلطّخ فستانها الأبيض الحريري بدمها ودمعها، وذبلت عيناها بحسرتها وألمها، ونامت أمام البابِ حتى الصباح.. حينها، فاقت على صوت فتحه للباب، وصوت أقدامه، حاولت النهوض، ولم تستطع من شدّة إعيائها، وظنت أنه سيمد لها يده؛ لتقف أو سيحتضنها..

ولكن للأسف، تركها ومضى، والتفت إليها قائلًا: "لا تتدخلي مرةً أخرى بحياتي وخصوصياتي، اهتمي فقط ببيتك وأمور زوجك"..

كان وقع تلك الكلمات كصاعقة على مسمعها، كان أثرها أشدّ خطرًا من صفعته.. اتكأت على باب غرفته، وأيقنت حينها أن ما تخيلته من حبٍ ووفاء وإخلاص كان وهمًا، كان ذنبًا ارتكبته بحق نفسها حين ظنت أن كل الزيجات ستكون مثل زيجة والديها..

ومن حينها وهي تتعرّض لكل أنواع القهر، والغدر، والخيانة، واللامبالاة، وظلت كذلك حتى اعتادت هي جبر خاطر والديها، واعتادت على حياتها، وتقبّلتها؛ كي لا تحرق قلب والديها عليها، وظلّت تتصنَّع الابتسامة أثناء وجودهما، وتعود لدمعها وقهرها في غيابهما..

واعتاد هو على عدم وجودها، وعلى كسر خاطرها دائمًا، إلّا حين يرغب هو بذلك، ويطفئ غريزته الحيوانية في وعاءٍ مكسور وهو الذي كسره، ومهما حاولت ترميم نفسها لا تقدر على ذلك، ولن يقدر هو على ترميمها مهما فعل..

****

ذكرياتهما نمَت معهما

ذات العشرة أعوامٍ ربيعًا، تَعلَّق في ذاكرتها أنها زوجةٌ لذاك ذي الخمسة عشر ربيعًا..

تغلغلت الفكرة في عقليهما منذ الصغر، أحبّا بعضهما حبًا طفوليًا بريئًا، كبر الحب ونما وجرى في عروقهما مجرى الدم، حتى بلغت طفلتنا الثامنة عشر عامًا، زوّجها والدها من شخص يكبرها بعشرين عامًا..

انكسر قلب حبيبها، وانفطر، وغرقت طفلتنا بمسؤوليات الزوج المعقد والمتكبر..

كانت دومًا تحاول إقناع نفسها أنّ هذا قدرها.. حاولت إرضاء والديها قبل رغبتها، وإرضاء زوجها قبل قلبها، تناست قلبها ونبضاته، وحاولت نسيان حبيبها وذكرياته..

انغمست في مسؤوليات الزواج والبيت والأولاد لعلها تكسب شيئًا من حقوقها، لكن الزوج تجاهل وجودها وعاملها كشيءٍ من أملاكه، أخبرها بأول يوم زواج لهما بكامل واجباتها، ونفذتها بالحرف؛ ولكنه لم يخبرها بشيءٍ من حقوقها عليه، ولم تُذكّره هي بحقوقها على أمل أن تجد لديه قلبًا يرحم وعقلًا يفهم، وبلا جدوى..

تعودت على القيام بواجباتها، وزادت بالتنازل عن حقوقها؛ إلى أن أفلس ذاك الزوج، وزادت غطرسته وتكبره، وظل يردد دومًا أنا ابن فلان وعلان، وظلت هي قائمة بكل واجباتها، وتحملت المسؤولية بدلًا عنه.

ظلت تعمل، وتتعب لتوفير احتياجات الحياة البسيطة، تعوّد الزوج على ذلك، بل وأعجبه ذلك جدًا، فأصبح يعايرها إن هي قصرت يومًا بشيء، أو بجلب احتياجات بيته وأولاده، بل

وباحتياجاته أيضًا..

ذبلت روح الأنوثة فيها، تكسرت مجاديف حيلها، غرقت في بحور الهم والويلات، وهو متنعم بحياته ولا يهتم لما وصلت إليه حالها..

ويحك يا من لا تملك من الرجولة إلا شكلها! ويحك يا من كسرت كبرياء أنثى رقيقة، واستعبدتها، ويحك يا متسلط وفارغ من أعماق أعماقك! ما هكذا تُعامل النساء، ولا لهذا خلقت النساء، ويلك من عقاب الجبار يا متجبر! سيعاقبك الزمان ويعاقبك أولادك على كل ليلة باتت فيها باكية، مجهدة، مهمومة.. وستندم عاجلًا أم آجلًا؛ لأنك حمّلتها واجباتها وواجباتك أيضًا، لأنك أهملتَ حقوقها، وتناسيت شخصيتها..

الويل والثبور لك أيتها المرأة الحقيرة بهيئة رجل، حين جعلت المرأة الحقيقية تساوي ألف رجُل من أمثالك..

****

كسر خاطر السجين

آهات مثقلة بالجراح، وحُزن يجتاح القلوب، وسيف غدر يُلهب الأحشاء، ونُواحٌ، وصياح، وجيش هَمّ يُحاصرهم، فكيف يُلام من فقد الجناح؟! وكيف يُلام من فقد رُشده؟!

(ر.ي.س) سجينٌ أُدخل السجنَ لجنحة ارتكبها، حكم عليه القاضي لمُدّة تربو على ثلاث سنوات، فقضاها صابرًا مُحتسبًا؛ فصلُح حالُه، وتهذّبت أخلاقه؛ فأُفرج عنه تقديرًا لحُسن سلوكه قبل انتهاء الفترة كاملة.

ولكن تجري الرياح بما لا تشتهي السفن، ظلت نظرات الناس تُلاحقه، وسخريتهم تقتله، فتارةً ينعتوه بالمجرم، وتارةً تتغير ملامحهم عند رؤيته، فهو أشبه بطير مقصوص الجناح، منبوذ بين الطيور، ولكن لا يستطيع الانتماء إلى أي فصيلة أخرى، فلم يعُد يتنفس بعمق، فاللعنات والشتائم تقتله، فلا أمان، ولا حنان، ولا حب.

لقد أصبحت حياته لا تُطاق، والأسى يلازمه طوال الوقت، وأصبح يسير بلا طوق نجاة، وكأنّ المجتمع الذي يتعامل معه مجتمعٌ مثاليٌ لا يخطئ ولا يذنب!

آهٍ ما أقبح المثالية الزائدة التي يصطنعها بعض البشر، وينظرون إلى الآخرين نظرة دونية!

الأدب أولا

تعجبك فصاحة لسانه، وعذوبة ألفاظه، وحسن مظهره، وما إن تتجاذب معه أطراف الحديث؛ إلا وأرعد وأزبد وهدد وتوعد، وكأنه في أرض النزال، فتعتريك الدهشة والاستغراب! فتتذكر قول الإمام مالك بن أنس -رحمه الله- لفتى من قريش: "يا ابن أخي، تعلّم الأدب قبل أن تتعلم العلم".

فقبل اقتناء الكتب، وشراء الدفاتر، وحفظ المتون، والاعتكاف على التحقيق والتأليف، تعلَّم الأدب.

وما أمتع قول الخطيب البغدادي: "الواجب أن يكون طلبةُ الحديث أكمل الناس أدبًا، وأشد الخَلْق تواضعًا، وأعظمهم نزاهةً وتديُّنًا، وأقلَّهم طيشًا وغضبًا؛ لدوام قرعِ أسماعهم بالأخبار المشتملة على محاسن أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم وآدابه، وسيرة السلف الأخيار مِن أهل بيته وأصحابه، وطرائق المحدِّثين، ومآثر الماضين، فيأخذوا بأجملها وأحسنها، ويَصدِفوا عن أرذلِها وأدونها"، فأين نحنُ من كلّ هذا؟!

(س.ط.ب) طالب علم حَسن السيرة والسلوك، عفيف اللسان، يشتكي من تعامل بعض أقرانه معه بقسوة وشدة، وإذلال وتحقير، وحتى كتبه؛ يتم مصادرتها وإحراقها! والسبب -كما يقول- أن له بعض الاجتهادات يُخالف أقرانه بها بعد بحث ودراسة ونظر.. فمتى كان الاجتهاد سببًا للهجر والقطيعة؟ أليس هذا ظلما بيّنًا وإجحافًا كبيرًا؟!

ولأهمية الأمر؛ سأضيف مقالة هنا بعنوان: (مصادرة اجتهادات الآخرين)، قلتُ فيها:

"تميزت شريعتنا الإسلامية عن بقية الشرائع الأخرى بفتح باب الاجتهاد، وهذا يدل على أن الإسلام قادر على قيادة الحياة الحديثة، وليتبين أيضًا أن الفقه الإسلامي يمكن أن يحلّ مشاكل الأمة ويواجهها، وأنه لا يقف مكتوفًا أمام المشكلات الحيوية والنظم التي لا بد منها لإصلاح الناس. وللمجتهد في الإسلام مكانة عظيمة ومنزلة رفيعة، فهو قائم مقام النبي صلى الله عليه وسلم بوصفه وارثًا لعلم النبوة، ومبلغًا إياه إلى الناس، وبوصفه معلمًا ومرشدًا للأمة -كما ذكر بعض أهل العلم- فقد جاء في الحديث الصحيح قول الرسول صلى الله عليه وسلم: "إنّ العلماء ورثة الأنبياء، وإنّ الأنبياء لم يورِّثوا دينارًا ولا درهمًا، وإنما ورَّثوا العلم"، أما صفات المجتهد وشروطه، فقد ذكرها ابن الصلاح إجمالًا فقال: "أن يكون مُكلفًا، مسلمًا، ثقةً، مأمونًا، منزهًا من أسباب الفسق ومسقطات المروءة؛ لأن من لم يكن كذلك فقوله غير صالح للاعتماد –وإن كان من أهل الاجتهاد– ويكون فقيه النفس، سليم الذهن، رصين الفكر، صحيح التصرف والاستنباط متيقظ" [أدب المفتي والمستفتي لابن الصلاح، ج1 ص21]

هذه مقدمة مهمة لما أود قوله هنا من خطورة مصادرة اجتهادات الآخرين من قبل بعض الدعاة أو المحسوبين على أهل العلم، فالاجتهاد ليس محصورًا على جماعة دون أخرى أو مذهب دون آخر، فمن توفرت فيه شروط الاجتهاد فله أن يجتهد ويدلي برأيه، فإن أصاب فله أجران، وإن أخطأ فله أجر واحد؛ لأنه يريد الحق، والوصول إليه، "وقد أكد أهل العلم على عدم الإنكار في المسائل الاجتهادية إنكارًا يؤدي إلى التشنيع على المخالف أو التثريب عليه بالهجر ونحوه، وأن الخلاف في الفروع، أكثر من أن ينحصر" [الصاوي،1993: 11]

والخلاصة أنه لا ينبغي التشنيع على المجتهد إذا أخطأ في مسألة اجتهادية ولم يوفّق للصواب؛ بحجة التشدد أو التساهل ما دام أهلًا للاجتهاد والبحث والنظر، بل له أجر على اجتهاده كما سبق بيانه.

****

لحظات تدثرت بالحزن

صاح الناعي بكلّ حروف الأسى ولُغات البُكاء: "أتُرِيدون دفْنَه حيًّا؟!"

إنها لحظة الحزن الغامر والدمع المنهمر حين يعيد التاريخ نفسه ويذكرك بفاجعة أليمة، وجريمة تاريخية كادت أن تحصُل لولا لطف الله.

لمثل تلك اللحظة يذوب القلب من الكمد ويتفطر الكبد، وتبكي السماء والأرضون، إنها لحظة لو لم يكن من نكد الدنيا سواها لكانت دار بلاء مبين.

فقد يخطئ أحدنا بحق الآخرين، ويعاقب على خطئه، وذاك حقّ، أما الإفراط في تغليظ العقوبة فهو يُفتت المجتمع، ويزرع البغضاء، ويوغر الصدور؛ فكيف إذا كانت العقوبة أن يُدفن حيّا؟!

إن الحكم بهذه البشاعة، صورة من صور الحزن التي تدمي العيون، وتحطم القلوب، وتفيض الآماق.

إذا الظالمُ استحْسن الظلمَ مذهبًا

ولـجَّ عتوًّا في قبيحِ اكتسابِـــــهِ

فكِلْه إلى رَيْبِ الزمانِ فإنَّـــــهُ

سيُبدي له ما لم يكنْ في حسابِــه

فكم قد رأينا ظالمـًا متجبــــرًا

يرَى النجمَ تيهًا تحت ظِلِّ ركابِه

فلما تمادَى واستطــال بظلمِــــه

أناخَت صروفُ الحادثاتِ ببابِـه

وعُوقِب بالظلمِ الذي كان يقْتفي

وصَبَّ عليـه الله سوطَ عذابِــــه

فإذا ما اشتدّت وطأة الحياة، وتأزمت الكلمة وعجز العقل عن التمييز بين الواقع والخيال، أو بين الشيء ونقيضه؛ عندئذٍ نلجأ للحِكمة التي هي خلاصة تجارب الناس لمئات السنين.

هل من المعقول السكوت على تلك الجريمة الخرقاء النكراء السادية البشعة؟!

يجب معرفة من المتسبب لوصول مجتمع له عاداته وتقاليده إلى هذا السلوك الوحشي غير المصنف.. يجب محاسبة كلّ من أخذ المجتمع إلى هذا المنحنى الخطير، أو سيتكرر هذا السلوك الأسوأ والأكثر سادية.

****

العَلاقة المسمومة

كتب لعينيها، وتغزَّل بلحظها الفاتر، وبهائها الساحر، وختم رسالته المنمّقة بقوله: "ذاك عسجد ودرّ مكنون!".

ثُمَّ وضعها في ظرف، وكتب عليه: "لستُ مثلهم يا حبيبتي، لقد كتبتُ في عينيك قصائدي، وأفنيت طرائفي وتلائدي، وزرعت حبك في حروفي؛ لينمو أمام أعين الناظرين، وسقيته بالشوق والتوق والكلف والحنين، فما ينفك يربو على مر السنين، أتذكرين؟!".

فردَّت عليه: "أنا مشتاقة لك، أكاد أذوبُ وأختفي من شوقي، مشتاقة لحنان عينيك يهدهد قلقي؛ لينام، ويمسح على تعبي؛ فيسكن، مشتاقة لصوتك يلفني كنغم يصدح في أوقاتي".

ومن فرط شوقها أحدَثت جَلَبة في فناء المنزلِ حتى تفطّن الأب لذلك، وتسرّبت إليه الأخبار، فصُعق من هول ما سمع، فغُشي عليه، فلما أفاق قال: "يا ليتني متّ قبل هذا! يا ليتني كنت عقيما!"

قالها والعبرة تخنقه، والحسرة تحيط به من كل جانب.

أيتها الفتاة:

ما الذي حَمَلَكِ على فعلك المشين؟! أليس لديك عقل تُفكرين به؟!

فو الله لقد ارتكبتِ جُرمًا في حقك، وحق أسرتك، وحق أبيك؛ لن يُمحى بسهولة!

ولأهمية هذا الموضوع في حياة الناس؛ كنتُ قد كتبت قبل شهورٍ رسالةً إلى كل فتاة:

في عالم الفضاء المفتوح، وفي شبكات التواصل الاجتماعي، وعلى أرض الواقع؛ ثمة مشكلة تقع فيها كثير من الفتيات بقصد أو بحُسن نية، وهي التصريح لبعض الشباب بميل قلوبهن لهم، وبالمشاعر الجياشة نحوهم، والسؤال الذي يطرح نفسه بقوة، هل ما تقوم به بعض الفتيات يعتبر مشكلة عويصة، أم المسألة عادية وهي مجرد مشاعر لا غير فلا داعي للقلق؟!

هذا ما سنعرفه في هذا المقال، وبين ثنايا هذه السطور، وسأحاول أن أقترب أكثر، ولا بد أن أقسّم مقالي هذا إلى عدة نقاط، وسأبدأ بفئة الشباب من الذكور..

النقطة الأولى:

1-الصنف الأول: الذين لهم تواصل مع بعض الفتيات، فقد وجدتهم شاذين فكريًا، ملوثين أخلاقيًا، هدفهم من التواصل الحصول على اللذة المحرمة والعيش بالخيال الموهوم، وهذه الفئة خطرة جدًا قد تدمر مستقبل الفتاة إلى الأبد، وقد تجعل العار يلاحقها في كلّ وقت، بل يسعون إلى الابتزاز بكل ما تحمله هذه الكلمة من معان..

2- الصنف الثاني: لهم تواصل ولكن بضوابط ومحددات لا يتجاوزونها، وقد تكون العاطفة وبعض المشاعر هي ما تجمعهم، وربما كان في مخيلتهم أنهما سيتزوجان في المستقبل، فلا بأس من إظهار بعض المشاعر هنا أو هناك كما يعتقدون..

النقطة الثانية:

ماهي الدوافع التي تجعل بعض الفتيات يثقن في بعض الشباب ويظهرن لهم شيئًا من الحبّ والاهتمام؟

الأسباب:

1- الهروب من المشكلات الأسرية والضغوط النفسية.

2- الفراغ العاطفي القاتل وتأخر الزواج، هذا أمر هام جدًا جدًا؛ ومدعاة للانحراف واللهاث وراء الحب والعلاقات المحرمة؛ لإشباع العاطفة إشباعًا كاذبًا ومؤقتًا يعود بالحسرة والندم والمرض على الفتاة.

3- قسوة الأب أحيانًا على البنت قد تجعلها تبحث عمّن يشعرها بالأمان..

4- إعجاب الفتاة بشكل الشاب أو لبسه أو أسلوبه.

5- العنوسة قد تكون سببًا مهمًا في نظري!

6- الفضفضة وقتل الوحدة والفراغ.

7- قلة الوازع الديني وضعف الصلة بالله، والالتزام بشرعه (الحلال والحرام)، وعدم خشية الله والخوف والحياء منه؛ وهذا يسوقنا إلى الخلل الكبير في تربية الأبوين للبنت والولد منذ نعومة أظفارهما..

8- عدم الرقابة والمتابعة من الأهل..

9- الصحبة السيئة.

10- الإعلام الفاسد والمضلل المرئي والمسموع والمقروء، خاصة الأفلام والمسلسلات وبرامج التواصل الاجتماعي، كلّها تحبب وتحضّ وتدعو البنت لإقامة علاقات عشق وغرام، وتصوّر هذا الجانب أنه طبيعي وعادي وهو سبب للسعادة والسرور والفرح..

النقطة الثالثة:

هل تواصل الفتاة مع الشاب وإظهار المشاعر بينهما إيجابي أم سلبي؟

الحقيقة وبدون رتوش ومن أرض الواقع؛ يعتبر كل تواصل خارج إطار الزواج سلبيًا، ولو كان بحسن نية، وبمحددات، وله آثار جدّية خطيرة، وكلامي هذا ليس ترفًا فكريًا أو من باب الفراغ؛ وإنما من باب التجربة، فقد تتبعتُ بعض الخيوط لعلاقاتٍ عاطفية بين الجنسين فكانت الخلاصة مخيبة للآمال، وهنا نقطة مهمة جدًا يجب على كل فتاة أن تدركها جيدًا وأن تعيَها قبل فوات الأوان وهي:

أن الرجل لا يمكن له أن يرتبط بفتاة ويرضاها زوجةً له بعد تواصله معها؛ لأنه يفكر أن لها علاقات كثيرة مع بعض الشباب، فنصيحة لك مني -أيتها الفتاة المصونة والكريمة- حافظي على

نفسك وعلى سمعتك، فلا تغتري بالكلام المعسول المنمّق الذي يصدر من الذئب البشري، ويوهمك بأنه فارس أحلامك، فتعيشين في سعادة مؤقتةٍ؛ سرعان ما يعقبها الندم..

****

القلوب مثل الزجاج

قيل:

"قالوا بأنَّ القلبَ مثلُ زجاجةٍ

إنْ كُسِّرتْ؛ من ذا الذي يمحو الأثرْ؟!

فاحذر بأن تؤذي مشاعر مسلمٍ

كَسْرُ القلوب جريمةٌ لا تُغْتفرْ"

نعم؛ لن تُغتفر، وستظل محفورةً في جدران القلوب، وذاكرة الزمان، فشتان بين كلام آسِن، وكلام آسِر.. شتان بين غيثٍ تهتز له أرض البداوة، وتربو وتنبت؛ وبين مطر يصيب خارج حدود فطرة الطبيعة، فإذا هي قيعان ووحل آسنة تُمسك الماء.. شتان بين الأسلوب الأَخّاذ، والأسلوب المُستهجن..

شتان بين البديع، والجميل، والجذّاب، والخلَّاب، والرائع، والساحر، والفاتن، والمُدهش، والمُمتع؛ وبين البشع، والرديء، والشنيع، والقبيح، والمكروه، والمُقرف.. شتان بين البِشْر، والبركة، والتفاؤل، واليُمن؛ وبين التشاؤم، والتطيّر، والنّكد.. شتّان بين من يجلب لك الزهور؛ وبين من تُزهر به، وقد قيل:

اصنَع خيرًا، ازرع وردًا .. أنجز وعدًا، حقِّق حلمًا

كُن شخصًا يُستضاءُ بهِ أملًا .. واصنع من نفسِكَ روحًا يُحِبُّها الله..

كسر خاطر المريض

منغصات الحياة كثيرة، ولعل المرض من نقائصها وابتلاءاتها، ومن تأمل واقع المرضى وتفقد أحوالهم عرف أنهم يمرون في مرحلة صعبة تستوجب على الآخرين الاهتمام والعناية بهم؛ لأن ذلك يخفف من أوجاعهم وآلامهم، وخاصة إذا كانت الزيارة من قريب أو صديق أو حبيب، فلها تأثير إيجابي على المريض، وشحذ لهمته، ورفع لعزيمته، وقد تتحول الزيارات المتتالية إلى جسر من العطف والسكن.

وحين يُترك المريض وحده، تسوء حالته، وتتدهور صحته، وتُهاجمه الأفكار والوساوس التي تفت في عضده، وتضعف قوته، ومن المؤسف أن الكثير من المرضى يُهمَلون من قِبل بعض الأقارب، فلا يؤبه لهم، فتترك في قلوبهم نُدوبًا يصعُب على الزمان محوها!

وقد اشتكى لي مريض أقعده المرض في بيته أن الكثير من أقربائه وأصدقائه الذين كان يُسامرهم ويسهر الليل من أجلهم تركوه يواجه مصيره المحتوم! نعم؛ تركوه بعد أن ضعف جسمه، وقَلَّ ماله..

تركوه بعد انحسار قوته وعنفوان شبابه!

تركوه وهو الإنسان المرهف الإحساس!

تركوه وهو رقيق البِنية، ومُتعب، ومُحتاج..

تركوه وهو يندُب حظه، ويتحسّر على سالف أيامه؛ يوم قضاها مع أصدقاء وأقارب خذلوه في مواطن كثيرة، وحتى مرضه العضال لم يشفع له عندهم، ولم يرف لهم جفن؛ فبئس صنيعهم!

وبئست ضمائرهم الميتة!

وهكذا أصدقاء السوء في كل زمان ومكان، في اللحظة الفارقة يلعن بعضهم بعضًا؛ لأن طينتهم نتنة، ومنبتهم رديء..

****

امسحوا على رأس اليتيم

منذ نعومة أظافره، وهو يتجرع مرارة العيش وصعوبة الحياة، ناهيك عن مواجهته للعقبات القاسية، التي أفقدته الأمل، وملأت نفسه خيبة وبؤسًا، وحتى الإحباط؛ لم يسلم منه، فقد تسرَّب إليه، فشلَّ حركته، وأوقف قلبه عن الخفقان، فتيقَّن أنه الرحيل الحتمي.

وهكذا حين يفقِد الطفل أحد والديه، وجزءًا من قلبه في باكورة عمره، يتسلل ليل الأسى عنوة، ويستوطن روحه الظلام، وتكون حياته مليئة بالآلام والأوجاع..

"فكيف للشمس أن تشرق من جديد؟!

وكيف للبلابل أن تشدو أغنيات الحب؟!

وكيف للأرض أن تدور؟! وكيف للمطر أن يهطل؟!

و"كيف لقلبك الصغير أن ينجو من عظيم كارثتك؟!" -على حد تعبير شاعرة أطلقت على نفسها اسم هدهدة حرف-.

فقل لي بربك، كيف حال صدر الصباح حين جثا عليه الليل، وسرق منه لهفة الوصال، ورغبة الوصول؟

آهٍ لوردة تبكي صباحًا فاض بالأوجاعِ!

آهٍ لبراءة تبحث عن ظلّها المفقود!

آهٍ لطير مكسور الجناح أسير في قفص الحياة!

آهٍ لطفل لا يستطيع الصراخ، يسكنه الأنين!

آهٍ ليتيم يلبس ثوب الحُزن، ويشرب كأس المُر!

آهٍ لمشرَّد أصبح بلا مأوى، يتسكع في الأزقَّة، وينام على الرصيف!

أيها الغيارى، وقبل أن أسدل ستار هذه الورقة أقول:

ما أحوج اليتيم إلى لمسةٍ حانيةٍ، وصدرٍ حنون!

ما أحوجه إلى ومضة سعادة، وقبسٍ من الفأل!

ما أحوجه إلى من يكفكف دمعه، ويجبر كسره!

ما أحوجه إلى من يقف بجانبه، ويمد له يد العون!

ما أحوجه إلى من يُزيح عنه الكمد، ويرسم له الآمال!

ما أحوجه إلى غيمٍ ماطر، يبعث الروح بأموات الجسد!

ما أحوجه إلى من يداوي جراحه، ويخلع عنه لباس الهمّ!

ما أحوجه إلى جُرعاتٍ من الحب، ليورِق قاحل الجدبِ!

ما أحوجه إلى من يمسح قلبه الكليم، ويُلملم شتاته!

ما أحوجه أن تهطل على قلبه غيمات فرح، فينبت أزهارًا!

ما أحوجه إلى السكينة، والأمان، والبذل، والإحسان!

قصة عقيم

تُحدّثني بصوتٍ متقطّعٍ وحزين على ما تجده من معاملةٍ قاسيةٍ في بيت زوجها، والسبب أنها "عقيم"، لم تنجب أطفالًا!

تقول: "نظراتُهم إليَّ تكاد تقتلني، وكأنني ارتكبت بحقهم وصمة عار، فلا احترام، ولا تقدير، ولا إنسانية، وحتى زوجي يُهددني بالصبر، أو الطلاق!".

ثمُ صرخت قائلة: "مَن يُخبرهم أن الأمر ليس بيدي، إنما بيد الله؟! فيا رب، أنت حسبي ورجائي".

ورسائلي لهم:

"هل تظنون أنها من قَشّ، أو من ورَقٍ شفافٍ، لا ظل له، ولا لون؟ فلا تنكسر أمام العواصف، ولا تنهزم أمام الذئاب؟! أو أن مشاعرها ميّتة، فلا تتأثر بكلامكم الممجوج؟! فلماذا كسرتم بخاطرها، وجعلتم قِواها مُبعثرة، وأحلامها محطَّمة؟"

ورسالتي إلى الطبيبين:

"أعيدوا بناء ما تهدَّم منها لعلَّها تستعيد ذاتها وتستجمع كل قِواها المهزومة، ضمِّدوا جراحها، وارسموا لها لوحة الفرح، فالكون قد تقلَّص حولها، وصار بحجم بعوضة، أو بحجم حبَّة قمحٍ في مِنقار عصفور.

اصرُخُوا في وجه الظلام؛ فليس كل الطرق وعِرة، وليس كل الأنهار يابسة، فقلبها لا يتحمَّل كل هذا الوجع.

وكونوا بجوارها، فقد تكالبت عليها الأزمنة الثقيلة، فالجُرح عميق، والطريق مجهول، وما أضيق المسافة بين الولادة والموت! فلعلَّها آخر ابتسامة سقطت من وجهها، واستقرَّت خلف الأبواب".

****

الشعور بالوحدة

قد تمرُّ عليك أيام تشعر فيها أن كلّ الأماكن ضيقة؛ فلا قريب يرُحِّب بك، ولا صديق يُسامرك، ولا حبيب يشتاق لك، وكأنَّهم يقولون: "لا أهلًا ولا سهلًا"، فتشعر بالوحدة، وتشكو النّوى.. وما أروع وصف الشاعر أبو مدين التلمساني حين قال:

تملّكتموا عقلي وطرفي ومسمَعي

وروحي وأحشائي وكلي بأجمعي..

وتيّهتُموني في بديع جمالِكُم

ولم أدر في مجر الهوى أينَ موضعي..

وأوصَيتُموني لا أبوح بسرِّكُم

فباحَ بما أخفي تفيُّضُ أدمعي..

ولمّا فنى صبري وقلَّ تجلُّدي

وفارَقني نومي وحُرِّمت مضجعي..

أتَيت لقاضي الحبِّ قُلتُ أحبِّتي

جفوني وقالوا أنت في الحبِّ مدّعي..

وعندي شهودٌ للصَبابةِ والأسى

يزكّونَ دعوايَ إذا جئتُ أدّعي..

سهادي ووجدي واكتئابي ولوعتي

وشوقي وسقمي واصفراري وأدمعي..

ومن عجبٍ أني أحنُّ إليهِم

وأسألُ شوقًا عنهم وهمُ معي..

فإن طلبوني في حقوقِ هواهُم

فإني فقيرٌ لا عليَّ ولا معي..

وإن سجنوني في سجونِ جفاهُم

دخَلتُ عليهم بالشفيعِ المُشَفَّعِ..

أيها العذَّال، هل نسيتم أن للمشتاق قلبًا يسلبه التأوه والتمني؟! فرفقًا به وبوجدانه فإنما هو بشر، وما حِسُّه بِحسٍّ جمادي..

أيها العذَّال، كفُّوا عذلكم، وموتوا بغيظكم، فلن يتخلَّى المُحب عن أهلّه وأحبَّته، ولو جَفوه، وكسروا بخاطره.

****

لا تسيئوا الظن في المطلقات

حين يسمع أحدُنا كلمة افتراق، أو انفصال، أو مُفارقة؛ يتوقع أسوأ الاحتمالات، فقد جرت العادةُ بأن هذه المفردات تُوحي بقطع العلاقات؛ إمّا بين صديقين، أو شريكين، أو زوجين..

والحديث عن انفصال الزوجين حديث مرهق نفسيًا؛ لما له من الآثار والتبعات المُدمِّرة على الأسرة، والمجتمع.. ولا يخفى على أحد أن فاتورة الطلاق باهظة جدًا، فمن سبر أغوار المجتمعات، ورصَد حالات الطلاق، ونظر في آثاره النفسية والمجتمعية والاقتصادية؛ أدرك خطورة ذلك.. وعلى سبيل المثال -لا الحصر- نرصد نظرة المجتمع إلى المرأة المطلقة، ولندع إحداهن تُعبِّر عن ذلك.. تقول والعبرة تخنقها:

بعد طلاقي أصبحتُ محطمة نفسيًا، والنظرات القاتلة ترمقني في كلّ مكان أزوره؛ عند الجيران، وفي المناسبات الاجتماعية، وحتى أهلي؛ يتمنون ليَ الموت وكأني ارتكبت جريمةً بحقّ أسرتي! فلماذا أُعاير؟ لماذا تُداس كرامتي، وتُقيَّد حُريَّتي؟ هل ظلمت أحدًا؟ أو سلبت مال أحد؟ أو ارتكبت جُرمًا بحق أحد؟ لماذا أنا خائنة في نظر البعض؟! هل إن طُلِّقت، ستتوقف عجلة الحياة، وتفقد الأرض توازنها؟! فلماذا تناسيتم كل مشاكلكم، وتذكرتم مشكلتي العائلية؟! أليس هذا ظلمًا وإجحافًا؟! أليس هذا تدخلًا في شؤون الآخرين؟!

تَرفَّعوا أيها القوم عن السفاسف، وانشغلوا بما يعود عليكم وعلى أسركم ومجتمعكم بالنفع.. وأنتم يا أهلي، يا سندي وعزوتي، كونوا عونًا لي؛ لا سببًا في تعاستي، وشقوتي، فأنا ابنتكم، ومنكم، وإليكم.. فاحمُوني من الضباع السائبة، وصدُّوا عني الذئاب المفترسة..

ومن سخر منِّي، وكسر خاطري؛ فلن أُسامحه حتى يقضي الله بيني وبينه..

****

الفقر ليس عيبًا

لم يكن الفقر يومًا دليلًا على الخِسَّة والوَضَاعة، كما أن الغنى لم يكن دليلًا على العِزة والمَناعة، فكلاهما سيَّان في ميزان الشرع. والمُوفَّق من نظر إليهما نظرة تأملٍ وأدخلهما في دائرة الابتلاء في حياته..

يقول أحدُهم ممن ابتُلي بفقرٍ مُدقع:

"أصبحتُ وجبةً دَسِمةً للمتنمرين

فذاك يقول: "يا فقير!"

والآخر يقول: "يا مُتسوِّل!"

والثالث يَصيح:" لا تدخل مَجلسًا فيه أشراف القوم!"

والرابع، والخامس.."

ومن ثَمَّ تساقطت دُمُوعُه على خدَّيه وهو يقول: "يا رب، أنت رجائي".

فو الله لم أشعُر بحُزن يُفتِّت الكبد مثل ذلك اليوم، وليس سهلًا والله أن ترى رجلًا منكسر القلب؛ ينذُب حظه، ويبكي قدره، ومن ثم لا تُشارِكُه أحزانه..

فهنيئًا لمن أعاد للمحزون بسمته، وللمتشائم تفاؤله..

هنيئًا لمن نصر مظلومًا، وأعان محتاجًا..

هنيئًا لمن أعطى واتقى، وصدَّق بالحسنى..

هنيئًا لمن وطَّن نفسه على مساعدة الفقراء والمحتاجين..

هنيئًا لمن كفل يتيمًا، وساعد أرملة..

هنيئًا لمن تفقَّد أسْرة عفيفة لا يسألون الناس..

هنيئًا لمن أنفق بلا منٍّ ولا أذى..

وبئسًا لمن بخِل، واستغنى، وكذّب بالحسنى..

بئسًا لمن كسر قلبًا وأبكى عينًا..

بئسًا لمن ساءت طويتُه، وانكسرت فطرتُه..

بئسًا لمن روَّع آمنًا، ومنع محتاجًا..

بئسًا لمن أذلّ فقيرًا، وسخر منه..

****

كسر الخاطر بالمنّ والأذى

لئن تسكن في مَغَارة سبُعٍ، أو قَعْر بحر، أو رأس طَودٍ؛ خير من أن تسكن في قصرٍ مَشيد، يطلُّ على بُحيرة هادئة، وساحرة وغنية بالورود والتماثيل والمنحوتات الرائعة، وقلبُك مُعذّب، ونفسك ضيقة من القيل والقال، والمَنّ والأذى..

وهذه قاعدة مطَّرِدة لا تُنكرها العقول السليمة، ولا تُخالفها النفوس الراقية؛ فقد تأكل ألذَّ المأكولات، وتلبس أرقى الملبوسات، وتركب أغلى المراكب؛ وعلى حين غِرة تأتي كلمة عابرة من صديق أو قريب؛ فتكسر خاطرك، أو تجرح قلبك، فتضيق بوجهك الدنيا، فتصير كأنك لم تستلذّ بطعام أو شراب.. ولأهمية هذا الأمر؛ ركّز عليه الإسلام وجعل له حدودًا وضوابط..

وحتى النفوس العفيفة، ترفض الدنيَّة، وتأبى التنازل عن بقيّة عِزَّة أو كرامة، فلا خير في حُفنةِ مال، أو رَغَد عيشٍ يعودان سلبًا على الإنسان.. وعلى مرّ الأيام والدهور، تبقى الكرامة مصونة، فلا يقبل امرؤ أن تُداس كرامته أو تُهان، ولو بذل روحه سبيلًا لذلك.. يقول أحدهم: "كرامتي هي رأس مالي، ولن أتنازل عنها ولو أُعطيت مُلك قارون".

ويقول آخر: "لا تبيعوا كرامتكم بعرَض من الدنيا قليل، فالمال سيذهب، والكرامة ستبقى".

كسر خاطر المُعلم

كُنْ شامِخًا عانِقْ هُناكَ الأنْجُمَا

يَكْفيكَ فخْرًا أنْ تكـونَ مُـعـلّمـا

لولاك ساد الجهل والتحم الدجى

هكذا ترنّم الشعراء بقصائدهم تقديرًا للمعلمين الذين ساهموا في بناء الحضارات، ونهضة الأمم.. فالمعلم هو مربي الأجيال التي تحمل راية المستقبل، وهو رُبّان السفينة، فحين أُحدثكم عنه؛ إنما أُحدثكم عن رمز للتضحية والعطاء، فقد أضاء قناديل العلم والمعرفة. فما من حضارةٍ في الكون أشرقت؛ إلا وكانت من ضيائه؛ لأنه منبع النور، ومشّع الخير.

ومع ذلك، نجد بعض الغرباء عن العلم ممن طمس الله بصيرتهم، يسخرون من المعلمين بكل تبجح وصَلَف! والبعض يعمد إلى كسر خاطر المعلم أمام زُملائه!

أيها الطالب، لماذا الاستهزاء والسخرية والتهكم بالمعلم؟ أين الإجلال والاحترام والإكرام والتقدير؟

أيها الطالب، احترامك لمعلمك دليل على أصل معدنك، ودماثة خُلقك، وحُسن تربيتك.

أيها الطالب، إساءتك لمعلمك إساءة للعلم والمعرفة، ودليل على سوء تربيتك، وقُبح صنعك.

وأما أنت أيها المعلم، فلك منا كل التحايا والسلام؛ فقد بذلت، ولم تنتظر العطاء من أحد، فمثلك كسحابة معطاءة سقت الأرض فاخضّرت، وكالنخلة الشامخة تعطي بلا حدود.

أيها المعلم، الكل مدين لك، فلن ننسى فضلك، فأنت من علَّمتنا أبجديات الكتابة، وأنرت طريقنا بالعلم والمعرفة.

****

الجفوة بين الجيران

مما يدمي الفؤاد، ويقرِّح الأكباد: الجفوة بين الجيران، فقد تبدأ بشيء من المُشاحّة والجدل؛ ثم تنتهي بالمُخاصمة والقطيعة!

ولعلّ حبّ الذات والانتصار لها من أسباب القطيعة، ولا غرو؛ فقد قامت حروب دامية لأسباب تافهة دوّنها التاريخ، فحرب البسوس في ضرع ناب!

وحرب بُعاث في مخرف تمر! وحرب غطفان في سبق دابة!

(د.هـ.ب) رجُل يسكن في إحدى القرى النائية، اشتُهِر بسوء سلوكه مع جيرانه -والعياذ بالله-، متناسيًا أن العداوات، والخصومات مع الجيران؛ من أمتن الأسباب إلى الشر، وأقدحها في العرض.. فقد جمعت مع الجوار القرابة، فكانت الوطأة شديدة، والجُرح مؤلمًا.

فلماذا شدّة الغيظ، وغليان الصدر على الجار؟! ولماذا القلوب تكاد تغلي بمراجل البغض؟ ألسنا مسلمين؟ أليس للجيران حقوق؟!

فنعوذ بالله من الخذلان بعد التوفيق، ومن الغيِّ بعد الرشاد..

****

لكلّ زوجة تحب زوجها

حين شرعْتُ في تحبير هذه الورقة تذكرتُ المُحاورَة اللطيفة والبديعة بين جمعٍ من النسوة حول فضل الزوج، وأهميته في حياة المرأة..

أما الأولى فقالت: "زوجي عوني في الشدائد، وهو عائدي دون كل عائد، إن غضبتُ عطف، وإن مرضتُ لطف".

وأما الثانية فقالت: "زوجي لما عناني كافٍ، ولما أسقمني شافٍ، عرقُهُ المِسك المُداف وعناقه كالخُلد، ولا يملُّ طول العهد".

وقالت الثالثة: "زوجي الشّعار حين أبرد".

وقالت الرابعة: "زوجي أنعم النعيم، وسُرور لا يُوصف".

(م.ي.س) شاب ذو فضل وكرم، وذو خُلُق ودين، تزوج امرأة جميلة المظهر، قبيحة الجوهر!

فسئل ذات يومٍ عنها فقال: "لا أُريد جمالًا.. أُريد أدبًا وخُلُقًا"

قالوا:" فكيف عشرتها؟"

قال: "فوق العذاب الأدنى، ودون العذاب الأكبر".

يُحكى أن امرأةَ أتت عبيد الله بن زياد، وكانت ذات شحمٍ وجسمٍ وجمال، مُعادية لزوجها، وكان أسودًا دميم الخِلقة، فقال:" ما بال هذه المرأة تشكوك؟"، فقال: "أصلح الله الأمير، سلها عما

ترى من جسمها وشحمها، أمن طعامي أم مِن طعام غيري؟" قالت: "من طعامك، أتمنُّ عليَّ بطعامٍ أطعمتنيه والكلاب تأكل؟" قال: "سلها عن كسوتها، من مالي أم من مال غيري؟"، قالت: "من مالك، أتمُنُّ عليَّ بثوبٍ كسوتنيه؟"، قال: "وسلها عمَّا في بطنها، مني هو أم من غيري؟" قالت: "منك، ووددتُ أنه في بطني من كلب؟!"

أيتها الزوجة، قد يتحمَّل الزوج أذاكِ، ويتجاهل أخطاءكِ، ويغفر زلأَّتكِ؛ إكرامًا لكِ، فلا تأخذكِ العزة بالإثم فتكون عاقبتكِ وخيمة.

أيتها الزوجة، لا تغتري بجمالكِ، ولا بمالكِ، ولا بعلمكِ؛ فالغُرور شجرة حنظلية أثمرت شرورًا كثيرًا.

أيتها الزوجة، جمال المرأة في حُسْن سمتها، وتبعُّلها لزوجها، وما سوى ذلك فتكبُّر سيكون وبالًا عليها طال الزمانُ أم قصُر.

أيتها الزوجة، لا تفشي سرًا، ولا تخوني أمانة، ولا تزرعي حِقدًا، فمعظم النار من مستصغر الشرر.

أيتها الزوجة، إن أهداكِ زوجكِ هديةً فاشكريه، حتى وإن لم تعجبك؛ مُجاملة له، واتقاءً لجرح مشاعره؛ فالكلمات الحانية، والمعاني الرقيقة، والهمسات الجميلة؛ لها تأثير كبير على بقاء الود، ودوام العشرة.

أيتها الزوجة، القناعة بالقليل دلالة على رجحان العقل، وكمال المروءة، وحُسن التصرف.

أيتها الزوجة، لا ترفعي صوتكِ على زوجكِ، ولا تكثري معاتبته ومجادلته، ولا تكدَّري صفو أسرتك بكثرة انفعالاتك.

أيتها الزوجة، لا تُعددي عثرات زوجكِ، فقد تُقام لك في الغد حفلة.

أيتها الزوجة، إن لم تنفعكِ النصائح، وتُقوِّم اعوجاجكِ التُّوجيهات، فقد تصلكِ رسالة: "هذا فراقُ بيني وبينكِ"؛ حينها يعود لك رُشدك، ولكن بعد فوات الأوان.

****

خيانة الصديق

الأصدقاء هم ترياقُ الحياة، وعطرُها الفوَّاح، وهم أشبه بقطرات النَّدى التي ترتشفها الأرواحُ الظامئة.. الأصدقاء، هم مُستودعُ الأسرارِ، وموطنُ الثقة، وهم الماضي الجميل، والأملُ المُشرِق..

ذكرياتُ الأصدقاء تُنحَت على جُدْران القلوب، وتُكتب على ذاكرةِ الزمن؛ لأنهم العصبُ والشّريَان.

الأصدقاء، حين يُصابون بمكروه؛ تتعطلُ لُغةُ الكلام، وتُترك العيونُ لتفيض دموعًا غزيرة..

وبالمقابل؛ نجد أن أصعب المواقف وأقساها غدرُ الصديق وخيانته! فقد تَترك نُدوبًا عميقة في القلب، طويلة الأمد؛ لأن الخيانة شديدةُ الوطأةِ على النفس، وطعنة غادرة يصعب أن يُغفر لها.

(أ. س. ك) شاب في العقد الثالث من عمره، حسَنُ الخَلْق والخُلُق، خطب فتاةً ذات حسبٍ ونسب؛ فاستشاط صديقُه غَضَبًا، وامتلأ قلبُه حِقدًا وحَسدًا؛ فدبَّر له المكيدةَ تلو المكيدةَ، حتى أوقعه في شِراك الإدمان، مما اضطر أهل الفتاة أن يُلغُوا الخِطبة ويُعلنوا ذلك على الملأ! فيالها من طعنةٍ قاتلةٍ مزَّقت نياط القلب ونَزَعت من الرُّوح البَوح!

يا لها من ذِكرى مؤلمة، تركت نُفوسًا مُتعبة، وأحلامًا مُحطَّمة!

فأين الصَّداقة؟! أليس الصديق هو الأليفُ، والأثيرُ، والأنيسُ، والجليسُ، والحبيبُ، والخليلُ، والزميلُ، والشقيقُ، والسميرُ، والصاحبُ، والصفيُّ، والعزيزُ، والعشيرُ، والقرينُ، والمؤانسُ، والمُسامرُ، والمُصاحب؟!

فلماذا الخيانة؟!

لماذا الحِيلة والخُدعة والخِداع والغش والمداهنة والغدر؟!

لماذا الخُبث والنَّقض والنَّكث والكذِب والغرور؟!

لماذا التدجيل والتدليس والتضليل والتمويه والمخاتلة والمخادعة والمراوغة والمحاذقة والنفاق؟!

لماذا الحقارة والخِسة والمهانة والوضاعة؟!

أين الأمانة والاستقامة والصدق والعفاف والمحبة والنزاهة والوفاء؟!

أين الإخلاص والصراحة والتفاني والبِر؟!

أين الأصالة والشجاعة والشكيمة والعِزة والمروءة والنخوة والنُّبل؟!

****

ما أقبح الغرور!

سمِّه ما شئت.. سمِّه أُبَّهة، أو افتخارًا، أو تباهيًا، أو تبجُّحًا، أو تعاظمًا، أو تعجرُفًا، أو تغطرُسًا، أو تكبرًا، أو خُيلاء، أو زهْوًا، أو صَلَفًا، أو عُتُوًّا، أو عُجبًا؛ فتلك مرادفات لكلمة "الغُرور"، وكلّ الطُّرُق تؤدِّي إلى رُوما..

فما أقبح الغرور! وما أقبح من يتصف به!

حين يغتر الإنسان بماله، أو جماله، أو عمله، أو عشيرته، فإنما يغرس في نفوس الآخرين بُغضًا وحقدًا وكُرهًا.. وسيأتي اليوم الذي سيجْني فيه ما غرسته يداه! فكم تتردد في مسامعنا عبارات تفوحُ منها رائحةُ العُنصريةِ والغُرور!

أنا جميلة! وأنا بنتُ أَبي! ولعلكَ لا تعْرِفني!

أنْتَ أيها الجزَّارُ والحلّاقُ! اعرِف قَدْرك! لعلَّك تَناسيتَ مَن تكون!

أنا أرضَخُ لهذا؟! أنا سافرتُ، ودرستُ، وأكلتُ، وشربتُ؟!

حدِّثني عن أصلك، وقبيلتك، وعشيرتك، وفخِذِك؟!

أكاد أجزم، بأن المُتكبر لا يُطاق العِشْرَة حتى مِن أقرب الناسِ إليه، فالكل يتمنى له الهلاك.. فحُب الذَات وتضخيمها على حساب الآخرين لا يُقبل؛ لأن الناس سواسية، ولا تفاضل بينهم إلا بالتقوى، وهذا هو ميزان الحق والعدل.. ومن شذَّ عن هذه القاعدة المطَّردة؛ فهو منبُوذ!

البخل ضياع للبيوت

تبَّت يداكَ أيها البخيلُ الأجرب! وصُبَّت فوق رأسك المحنُ والآفاتُ..

رويدَك أيها القارئُ، فلا تتهمني بالشططِ والمغالاة، فإنك لا تلبث أن تسلِّمَ بما قلتُ حينما أرفعُ لكَ الأستار وأكشفُ لكَ الحُجُب عن مساوئ البخيل!

(ن.ي.س) امرأة في العقد الثالث من عمرها، قُدّر لها أن تتزوج رجلًا بخيلًا يتخذ البخل مذهبًا، ويجعله شرفًا ومنصبًا.. وما أروع البُحتري وهو يصفه، وقد أدّى به بخله إلى الجفاف؛ حتى بات يعوم فوق الماء، فلا يغرق، فقال:

"جَفّوا مِن البُخلِ حتَّى لَو بَدَا لَهمُ.. ضَوءُ السُّهَا في سَوادِ اللَّيْلِ لاحتَرَقُوا"

أيها البخيلُ، ويحك! كيف تختار زوجةً ذات حُسنٍ وجمال وقَدٍّ واعتدال، وكأنها الشمس الضاحية تتمايل من غير سُكر، ثَم لا تغمرها بفيض كرمك وعطفك وحبك وحنانك؟! فأين مالُك المُدَّخر، وجواهرُك الثمينة؟!

أين حبُّك الفيَّاض، ولمستُك الحانية؟!

أين وجهُك البشوش، وابتسامتُك الساحرة؟!

أين رقةُ قلبِك، وعُذُوبةُ صوتِك؟!

أين عطرُك الفوَّاح، وبستانُك الجميل؟!

أيها البخيل، هل تطيب لك نفسٌ وأنت ترى وردةً ذات ملاحةٍ ونضارة، وحُسنٍ، وإشراقٍ، وقسامةٍ؛ تذبُل أمام ناظرَيْك؟ وتتلاشى من الوجود؟ ولا تَنْزِف دُموعًا داخل قلبِك كَمَدًا وحُزنًا على قبيحِ فعلك وسوءِ تقديرك؟!

أيها البخيل، راجع حساباتك؛ فالزمن مُتقلِّب ودوَّار، وتفقَّد غَيبةَ ضميركَ قبل فوات الأوان، فمالُك قد يُنزَع منك فجأةً؛ لأنه مالُ الله، وحينئذٍ تندم على تفريطك وبُخلك..

أيها الأبُ، حين ترضى بالبخيلِ زوجًا لابنتك فقد حكمتَ عليها بالإعدام، فاحذر من الاقتراب منه، واجعل بينك وبينه بُعدَ المشرقين، ولا تأمنه على فلذة كبدك، وريحانة بيتك، ولو أعطاك القناطير المقنطرة.

****

منع الفتاة من الدراسة

منع الفتاة من مواصلة دراستها جريمةٌ كبرى، وطامّة عُظمى، بل يعتبر مخالفة للشرع الحكيم، فقد كرَّم الإسلام المرأة وأعطاها حقوقها كاملةً غير منقوصة، قال رسول الله ﷺ: "كفى بالمرء إثمًا أن يضيّع من يقوت".

(س.و.ي) فتاة يافعة تسكن في إحدى القرى النائية المشهورة بظلم المرأة وسلب حقوقها.. كانت -كغيرها من الفتيات- تحلم بمستقبلٍ مُعبَّدٍ بالورود، وخالٍ من الشوائب، ولكن، وكما قال الشاعر: "تجري الرياح بما لا تشتهي السفنُ"، أرادت الالتحاقَ بالمدرسة؛ فتمَّ منعها بحُجة العيب!

أيها المسؤول عن هذه البنت، وغيرها، أتظنُّ أن هذه الفتاة عائشة في عالم الأوهام، وسابحة في بحار الخيال والأحلام؟! فعمدتَ إلى خلق الأعذار، وجعلت "العيب" سببًا للمنع! فو الله ما أنت إلا كالنَّمر المتلحف بجلد المهاة، وكالأفعى التي لانَ ملمسُها، وفي أنيابها العطب!

ها قد أتيت -يا ليل- وجئتَ متشحًا بوشاحٍ أسودَ حالِك..

تخيفني وتفزعني وترمي بسواد ليلتك على بياض عيني..

جئت وكل ما فيك يخيفني..

جئت تحمل همومًا وأحزانًا وأفكارًا تؤرقني..

ماذا بيني وبينك -يا ليل- لكي ترعبني؟!

لِمَ تحرمني غفوة عيني؟!

لِمَ تستجرُّ آهاتي من أعماق جوفي؟!

هل أخطأت يومًا بحقك كي تعاملني بهذه القسوة؟!

هل أزعجتك أنَّات قلبي وأيقظت غفوتك كي تعاقبني؟!

كم حاولت أن أتهرب من لياليك وأيامك؟!

كم حاولت أن أخمد نيران شوقي وأكتم آهاتي أثناء منامك؟!

لكن ما بداخلي كان أكبر وأكبر من كل محاولاتي، ألمٌ وحزن وشوق وحنين ودمٌ وقهر، وكل مآسي العالم اجتمعت في أعماقي، ولم أستطع إخفاء مشاعر تأججت في دمع أحداقي..

لم أجد متسعًا من الوقت كي أرتاح، سوى هدوء الليل، وها هو هدوء الليل

قد ناح وولى وراح.. تشابكت فِيَّ المشاعر بين ضحكٍ ونواح..

بين ألمٍ وأفراح، وعذاباتٍ وجِراح..

أعتذر منك -يا ليل- فقد أزعجتُ هدوءَك بأفكاري، فهل سترحمني يا ليل؟ وتعيد إليّ غفوتي إذا قدّمت اعتذاري؟!

هل ستعيد لي هدوء النفس وراحة بال النائمين فيك؟!

أم ستنتزع ما تبقى فِيَّ من جهد، وتقتلني بيديك؟!

ضرب الزوجة

"هو يدَّعي أنّي كتبتُ لغيره.. وأنا بكلِّ قصائدي أعنيهِ

وله أُصرِّح جهرةً بمحبَّتي .. فبأيّ قولٍ بَعد ذا أُرضيهِ؟!"

قبل ردحٍ من الزمن، وفي إحدى المُدن العامرة طَرقَت عيناي -من طرف خفِيّ- زوجًا يعتدي على زوجته أمام الناس! تسمَّرت في مكاني، واعترتني الحيرة والدهشة، مُتسائلًا:

كيف يجرؤ هذا الأحمق على فعلته؟!

هل جفت ينابيعُ الغرام من قلبه، وتبدَّلت مشاعِرُه فجأة؟

وهل نضب مِعْينُ الحُبّ وأصبح غَورًا؟

أليست الحياةُ الزوجية مُقدَّسة؟! أو ليس ميثاقها غليظًا؟

أليست الزوجة هي النّصف الآخَر للرجُل؟

أليست المرأةُ في البيت هي صانعة الأجيال ومُربيتها؟

فلماذا تُعامَلُ بهكذا طريقة؟!

ولماذا يَعْمَدُ البعض إلى كسر خاطرها، وإلى جرح مشاعرها؟

لماذا؟ ولماذا؟!

الحقيقة الصارخة أن الحادثة لم تكن جديدة، ففي مثل هذه الأوطان، لا غرابة أن تشهد مثل هذه الحالات –للأسف- جهارًا نهارًا.. لا جديد في أن تحكم عادات أبناء هذه الجغرافيا قبضتها على أرواحنا فقط، أن لعنة الجسد الأنثوي أصابتنا دون أن يكون لنا يدٌ في ذلك!

وأقول لعنةً فقط؛ لأنهم جعلوها كذلك، أما في رأيي واعتقادي الشخصي فليس الجسد الأنثوي إلاَّ نعمة حبانا الله بها وأبدع فيما خلق..

لا زلت في مكاني مذهولًا، أراقب يديه اللعينتين وهما تهويان على جسدها النحيل.. وفي الحقيقة، كانت كلّ صفعةٍ تتلقاها؛ يُدوِّي صداها في روحي، وكل شتيمةٍ تسمعها؛ تندب نفسها في ذاكرتي، وكل آهٍ تزفرها؛ توشم بالروح قبل المسمع، وكلّ دمعةٍ ذرفتها؛ أغرقت دواخلي ببركان غضبٍ هادر، وسرحت بخيالي بعيدًا جدًا حيث البدايات التي تخبئ خلفها هذه النهاية الرتيبة والمتكررة.. وأخذت أتساءل:

تُرى؛ كم قطع لها وعودًا بحياة مثاليةٍ خاليةٍ من كلّ ما حدث مؤخرًا؟

كم ذابت روحه على نظرة رضًا من عينيها حين لم تكن في متناول يديه؟!

كم طرب سمعه لصوتها الذي سرق لبّه؟!

صوتها العذب الذي يغدو كمقطوعةٍ موسيقية على آلة كمانٍ عتيقه؛ هو ذاته صوتها الآن، حين تطلق صراخات الاستغاثة وتتوسله أن يرأف بحالها ولكن دون جدوى! لم تعد أذنه تستجيب لسحر نبراتها لسببٍ ما! وهو الذي كان مستعدًا لفعل المستحيل ليحظى بكلّ شيء يخصها..

عيناها النديتان يحيط بهما سوادٌ لا يشبه أي سواد، ليس بسبب السهر والبكاء؛ وإنما بسبب الخيبة، نعم، هي تفعل بنا ما لا يمكن لعدوٍ فعله، فرفقًا وجبرًا بالقوارير!

حدثوها عن المزايا المُزهرة بها؛ ما ظهر منها وما بطن، عن أمان وسلام النظر إن رنا لتلك الملامح ذات حُنوٍ وطِيب، فـ "مَن سارَ في جبر الخواطر؛ أدركه الله في جوفِ المخاطر".

****

كسر خاطر الطفل

ثبتَ في العلم الحديث أن الطفل في سن الرابعة والخامسة من عمره يبدأ بتخزين شريط ذكرياته، ويتذكّر تفاصيل حياته كلّها حين يكبر.

(م.ن.ر) الطفلة البريئة ذات الست السنوات، أشبه بفراشة تُحلِّق في جنَبات المنزل، وتتنقل من مكانٍ إلى آخر؛ فقد حباها الخالقُ ذكاءً، وفطنةً، وسرعة بديهة، رأيتُها يومًا تبكي بسببِ كلمةٍ جارحةٍ كسرت خاطرها، وجعلت الدموع تفيض من عينيها بغزارة! فقد قيل لها: "يا سوداء!"

ورسالتي له ولأمثاله:

لماذا جعلتها تنزوي في غرفةٍ مهجورةٍ، تبكي وتندُب حظها؟

فهل سواد وجهها جريمة؟

وهل نحول جسدها مخالفة يعاقب عليها القانون؟!

وهل؟ وهل؟!

يجب عليك أن تعتذر لها، وتُبدي أسفك؛ لأنك أحزنتها، وكسرت خاطرها، وهي تلهو معك وتترنم بصوتها العذب؛ مُعتقدةً أن صنيعها يُقربها منك، ولا تدري أنك وحش بصورة آدمي!

اعلم أنّ جمال الظاهر ليس مقياسًا للحب والاحترام، فتلك نظرة تفتقر إلى الواقع، فكم من جميل تلعنه القلوب، وتلوكه الألسن سخرية وسبابًا؛ لأن أخلاقه سيئة! وكم من دميمٍ يؤلف طبعه؛ فتحبه القلوب!

ولعلك تناسيت أن العلاقة بين الناس قائمة على الاحترام، وليس على النزق والغرور، فلماذا وضعت نفسك بهكذا موقف؟! هل يرضيك أن تهرب القلوب منك قبل الأجساد؟ وأن تفر منك الفراشات الندية، وتُحلِّق بعيدًا عن ظِلك المشؤوم؟

يا أنتَ، العاقل من يراجع حساباته، ويجعلها تحت الرقابة الذاتية؛ حتى لا يخسر المزيد، فحين تتأمل بدائع الزهور، كخدّ الدحنون والنفل والأقحوان والخزامى والعود والطَّيُّون، فهل لحظت يمامة تؤذي زهرة وتكسرها؟! فلماذا تؤذيها أنت؟ وتجعلها تذبل بعد أن خلع خريف غرناطة عباءته فوق خصلات شعرها؟!

هل تعلم أن الكلمة السيئة تؤذي ولو ألبستها وشاح المزاح؟! والكلمة الطيبة تسرّ ولو كانت مجاملة؟ فقد تجعل النيل والفرات ينبعان من عينيها!

"الورد يلهو زاهيًا، كالبدر فوق الوجنتين"، تلك هي الفراشة وردة يعطِّر عبقها المكان.. تزهو، تلعب، تحلِّق، وأنت تسعى جاهدًا لخلق الضوضاء أمامها!

فكم هو محظوظٌ مَن يُعيد للمحزون بسمته، وللمتشائم تفاؤله، ويصُب على من حوله سكينةً وبلسمًا! ويردد قول الشاعرة (هدهدة حرف):

"روحي فداكِ وصبوتي ويميني..

وفدى عيونكِ يوم أن تبكيني..

فداكِ نبضُ وتيني يا زنبقتي وفراشتي المُحلِّقة..

فلا تبكي..

فهمسكِ يُعيد للورد شذاه وعبقه..

ولا شيء أجمل من صوتكِ المتماهي مع عبق القهوة..

وحتى الشعر بحضرتكِ يجود..

ويتثاءب الصباح على عتباتكِ

والليل يغرف من كفَّيكِ"..

يا صاح، لماذا تصرّ على قصقصة أجنحة اليمامة؟ فهل أزعجك الطيران وأرَّق مضجعك؟

لا شيء؛ إلاّ نزقك وقسوتك، ومزاجك السيء.. ولعل الرفق واللِّين معك يزيدك حماقة ولؤمًا.. فحذارِ لك -أيها الأحمق- من التمادي في جرح مشاعر الآخرين، فليس كلّ مرَّة تسلم الجرَّة!

****

ما زال القلب نابضًا

مرّت أيام وليالٍ،

وشهور وسنين

وما زال قلبي ينبض بالشوق إليك، والحنين..

وما زالت عيناي تحتضنان آخر صورة لك..

وما زلت أسمع صدى آخِر كلمةٍ قلتها..

وكأنَّ الزمان قد توقف

عند آخِر لحظة!

بل كأنَّ عقارب الساعة توقفت عن الحركة..

كلّ شيء يمشي بنظامٍ كونيٍّ دقيق،

وتستمر الحياة عند كلّ البشر

ولكن زمني أنا وأنت؛

قد توقف عند تلك اللحظة..

حين قلت لي: "أحبكِ"،

ورحلت عني!

نعم؛ رحلت..

لِمَ إذًا قلتَها؟ ولِمَ رحلتَ؟!

ليتك لم تقل شيئًا..

ليتك بقيت صامتًا..

ليتك لم تهمس بحروفها في مسمعي..

ليت يدك لم تحضن يدي وتحرق أضلعي..

ليتك، وليتك، وليتك كنت معي..

وليتك لم تكن معي..

جعلتني أعيش في دوامةٍ

اسمها "أنت!"

تركتني أعيش في قوقعةٍ بدايتها ومنتهاها أنت..

سنين مرَّت من عمري؛ وأنا أتسمر في مكان التقيتك فيه..

وكلّ ذكرياتي لم يكن فيها أحدٌ غيرك أنت!

كلما حاولت الخروج؛ رجعت إليك أنت!

وكلما حاولت الهروب؛ أهرب منك إليك أنت!

أنت عالَمي كله، وأنت كلّ دنياي..

نعم؛ أنت!

لا حاجة لي بالبشر كلّهم ولا بحياتهم ولا بتطوراتهم،

أريد أن أحيا من أجلك ولأجلك ومعك أنت!

لم أعد أسمع أيّ أخبارٍ جديدة..

ولم أعد أرى وجوهًا جديدة..

كلّ أخباري أنت!

وصورتك، أراها في كل الوجوه،

وفي كل الزوايا والأركان..

وعلى وجه القمر، وعلى ضوء النجوم..

أراك أنت..

فقط أنت!

فلك كل الحب،

ولك الماضي،

والحاضر،

والمستقبل..

يا مستقبلًا عشته بذكريات ماضٍ أسميته أنت..

****

ثقة القلوب بالمودة

"أحبكِ!"، قالها بثقة..

ردّت:

الحب عاصفةٌ هوجاء..

إن أحببتني بصدق،

تأكد أني لستُ كباقي النساء..

لا أرضى الخيانة..

لا أقبل المهانة..

ستحتلُّ في قلبي أعلى مكانة

لم ينلها قبلك العظماء..

سأجعل سماءك أرضًا

وأرضك سماء..

ستتربع على عرش الملوك والنبلاء،

فأنا لستُ كباقي النساء..

وإن أحسست فيك غدرًا؛

تأكد أنّي سأوقف الأرض عن الدوران..

سألغي من حياتك الزمان..

وأشتت فيك المكان..

سأنهي قاموس لغات الأكوان..

وسأواري شخصك بين الأكفان..

****

أُمنيات حاضرات غائبات

ليتك تعلم كم يجرحني البُعد ويبكيني الفراق!

ليتك تشعر كم أحتاج للحظة نقاء تغلفها الأشواق!

كم أحنّ لصدفة تجمعني بك؛ صباحًا كان، أو ذات عناق!

أردت البوح بكلّ ما فيَّ، وكل ما في عمق الأعماق..

أردت من يخرجني من دوامة الهم، أردت الرفاق..

اشتقت لزمنٍ جلّ أحلامنا فيه طهرٌ ليس فيه نفاق..

افتقدت أيامًا مرت ذكراها، كشلالٍ ينساب رقراق..

تبكيني تلك الذكرى، وتكتحل عيناي بدمعٍ منساق..

أعيش في دهاليز الهموم؛ بين حزنٍ تارةً، وتارةً دمع دفاق..

ظللت طريق الخروج، وتهت بين تلك الزقاق..

بكيتُ، وبكيت، ولم أجد يدًا حنونةً تمسح دمعة الأحداق..

عدتُ أدراجي أشكو لليل وحشته، وأناجي قمرًا مظلمًا وكوكبًا براق..

أعدّ النجوم، وأعيد عدّها وترتيبها، وأسقط فوق فراشٍ يشتعل بنار الأشواق..

أغمض عيني، وأمسح دمعي، وأحتضن وسادتي، وأكتم صدى الآهات، وأشكو لنفسي ألم الفراق..

ماذا أعطيك؟!

ماذا أعطيك لكي تعطيني حريتي؟!

ما الذي يرضيك كي تعتقني؟!

قيودك الصدئة أوجعت خصري..

وظروفك المفتعلة أرهقت صبري..

خذ ما تشاء؛ فقط دع هذا القلب ليرتاح..

قُل ما تشاء، فما عادت تبكيني الجراح..

افعل ما تشاء؛ فلن تهزني عواصفك، ولا الرياح..

ثابتة على موقفي ضدك..

واثقة بحبي وقوتي أمام صدك..

قسوتك زادتني صلابة وقوة..

جحودك لم يقتل فيَّ الذكريات والأمنيات الحلوة..

خذ ما تشاء؛ فقط دع هذا القلب ليرتاح..

انسَ كلّ شيء يذكّرك بي، فقد نسيتُ كلّ الطرق المؤدية إليك،

وأغلقتُ الباب، وفي بحور النسيان رميتُ المفتاح..

****

صدى صوت

سمعت صوتًا يناديني

من خلف جدران الزمان..

هو صوته،

بل أنينه،

بل شوقه!

هو بحّة صوتِ عاشقٍ ولهان..

أصغيت بكلّ ما فيَّ لنبرته

لعلّي أميزه من بين الجدران..

هو صوتٌ يرتدّ صداه في خافقي،

فيزداد لهيب جوفي والخفقان..

عرفته هي ذات البحة الثكلى..

هي تلك النبرة لذاك الإنسان..

هو عشقي، هو غرامي؛ بل حنيني..

هو أمل تاه بين زحام الأحزان..

سمعته يناديني تعالي وانتشليني

فما عدت أطيق ظلمة الروح والمكان..

تعالي يا توأم روحٍ قد ضاعت حيرى

في حنايا الأيام والليالي وتلك البنيان..

تعالي يا نبض قلبٍ يعتصره الألم،

وأنفاس جسدٍ أحرقته النيران..

تعالي لعلِّي أعود كما كنتُ؛ حَيًّا..

تعالي وانتشليني من بين الأكفان..

****

وهج الكلمات

ماذا أقول أو أسطر، وكلّ الحروف في هواك صارت عقيمة؟!

إن وصفتُكِ بشعرٍ؛ غار منه النثر، وإن كتبتكِ روايةً؛ أمست قديمة..

هواك في أعماق قلبي محجوب، وفي أفراحي وأحزاني الأليمة..

إلى متى أشكو غيابك؟!

يا قلب لا تنكسر! ولا تضعِفْكَ رياح الزمان والليالي المعتمة..

إلى متى سأظل أفتقد طلّة جبينك الأغرّ؟!

إلى متى سأظل أردد أهازيج البين العديمة؟!

أريدك معي، في صبحي ومساءاتي والسحَر..

أريدك بلسمًا لجراحاتي وآلامي السقيمة..

سئمت درب الفراق، وسئمت وحدي السهر..

ومللت من الحزن، والوحدة، والأشواق اليتيمة..

عُد إليَّ لتزهر أيامي، وقلبي بك يخضر ويثمر..

عُد إليَّ يا لحنًا تغنَّت به الذكريات القديمة..

****

كلمات تعبق في الصفحات

كنتَ كتابي الشيق..

كنتُ لا أنام حتى أقرأ فيه صفحة، أو بضع سطورٍ إذا كنتُ مرهقة.. كنتُ لا أمَلُّ قراءته، كلّما انتهيتُ من فصلٍ؛ لقيتُ التشويق في الفصل الثاني.. كنت ألقى في نهايةِ كلّ فصلٍ بدايةً جديدةً مشوّقة، ولهذا لا أمَلُّ منه.. وكنتُ أظن أني لن أملّ؛ حتى وصلتُ إلى نهاية الكتاب، ولم أجد منه فائدةً سوى غلافٍ ممزقٍ لا فهرس فيهِ ولا مراجع..

وحين راجعتُ قراءتي منذُ البدايةِ؛ وجدتُ الكتابَ بلا عنوان!

فماذا كنتُ أقرأ طوال تلك الفترة؟!

لا أدري، ولا أعلم..

****

فقدان أليم

فَقَدَ كلَّ شيء؛

أمسه، ويومه، وغده، وحتى ذاكرته وحواسه..

فقَدْ خذله القلمُ، وخانه الكِتاب..

فهو كجناحِ طيرٍ مكسور،

وبقايا وطنٍ كسيح،

وعقلٍ يتنقَّلُ مثلَ المُهجَّرين بينَ الصَّحوِ والجُنون،

ولُغةٍ مقهورةٍ!

فهذهِ الأرضُ مالحةٌ بلا معنى، لا تتناوبُ عليها الفصول..

فكلُّ الأوراقِ تساقطَت،

وكلُّ الأقنعةِ تساقطت،

لا نوافذَ فيها ولا أبواب..

****

نزف الجراح وتنهيدات السنين

متعبةً أبدو، هادئةً؛ لا أشكو..

في أعماقي جِراحٌ تنزف، وأوجاعٌ على صدري تجثو..

قويةٌ هي تنَهُّداتي، قاسيةٌ لا تحنو..

في جوفي روحٌ مكسورة، وأنفاسٌ ضعيفة..

وصراعٌ بين أفكاري، وجفنٌ مرهق لا يغفو..

متاهاتٌ كثيرةٌ أعيشها، ودموعٌ لا تظهر ولا تخفى،

لكني غرقتُ بها، فهل تُراني أنجو؟!

****

الـفـهـرس